

اربع بَعَاةٌ رَجَال

حضرة الأستاذ الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

من خلال السحب التي أثارتها أقوال المعاصرين وآراءهم، يبدو أربعة من رجال القرن الثالث عشر الميلادي في عين الباحث الحديث نماذج إنسانية فريدة، لا تتمخض الأجيال عنها إلا نذرا. وأولئك - حسب ترتيبهم هنا - هم السلطان الكامل محمد الأيوبي، والقديس فرنسيس الأسيسي، والإمبراطور فردريك الثاني هو هنشتا وفن، والفيلسوف ابن سبعين الأشبيلي. وفي حياة كل من أولئك الرجال ما يدل على فردية ظاهرة وباطنة - كل في ميدانه -، غير أن اتصال بعضهم ببعض في ميادين الدين والساسة والدبلوماسية والحرب والجدال الفلسفي هو موضوع هذا المقال.

أما الكامل محمد فهو خامس سلاطين الأيوبيين في مصر، وهو ابن السلطان العادل محمد بن أيوب الذي حوّل الدولة الأيوبية عن سلالة أخيه صلاح الدين إلى سلالة الفرعية، والكامل محمد لهذا شبيه شهاً عابراً بالخليفة الأموي عبد الملك أواخر القرن السابع الميلادي، لأن عبد الملك ابن لمرّ وان الذي حوّل الدولة الأموية كذلك من سلالة مؤسسها معاوية إلى سلالة المتفرعة من العاص - لا أبي سفيان - ابن أمية. على أن وجه الشبه بين السلطان الكامل محمد الأيوبي والخليفة عبد الملك الأموي يقف عند هذا، وليس في حياة الرجلين أو صفاتهما أو بيئاتهما ما يبرر أو يفسر الوقوف للمقارنة التي لا محل لها في البحث التاريخي، وليست بذات موضوع في الدراسات التاريخية، لأن شخصيات التاريخ لا تتكرر ولا تعيد نفسها ألبتة، وهيئات ما بين الخليفة الأموي ومنبته وحاله ووضع الزمنى والجغرافى وبين السلطان الأيوبي وأصله ونشأته ومقتضيات الحال السياسية في عصره، وكفى ما يتصدع به القاريء في كتب المحدثين أحيانا أسيفة من مقارنات ومفاضلات لا طائل تحتها، ولا معنى لها، ولا هدف منها، إلا إشباع حب الحبر المطبوع، وإكثار السطور المرصوفة نثرا ونظما. ولو رأى الكامل محمد نفسه موضوع مقارنة أو مفاضلة ملقا أو زلفى لا متعص أشد المتعاض، لا استحياءً ولا استعلاءً بل قنوعا واعتقادا بأن كل امرئ ميسرٌ لما خلق له. ثم إن الكامل محمداً عاش متواضعاً في غير صلف باطن أو ظاهر، طويل الروح في غير بلادة، يضع الشيء في موضعه من غيره إسراراً ولا إقتاراً، منطويا على نفسه في غير كبرياء، هادئ المزاج في غير غطرسة خافية، مع ليونة سياسية في غير رخاوة أو تهاون أو هوان. ولست أريد أن ألقى

